معارك الحجاز

حصار جدة ومعارك الليث :

يذكر ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . ، أن عبـد الوهاب بن عامر ، المعروف بكنيته : (أبو نقطة) ، وكان أميراً على ألمع وعسير ونواحي تهامة ، سار قاصداً (جدة) محارباً لها ، بأمر سعود ، ونزل (السعدية ، الماء المعروف قرب سيف البحر ،بينه وبين مكة نحو يوم ونصف ،وهم نحو ستة آلاف مقاتل) وأن الشريف غالب علم بسيره ،فجهز (العساكر الكثيرة ، قيل انها عشرة آلاف رجل ، وقصد عبد الوهاب على مائه ، فالتقى الجمعان واقتتل الفريقان) ... وانهزم الشريف غالب وجنوده (فتبعهم أهل عسير .. يقتلون ويغنمون ويأخذون سلاح المدبرين ولباسهم وما معهم .. وترك الشريف غالب ثقله ومدافعه وزهبته وسلاحه .. قيل ان البنادق التي جمعت ألفين وخمسمائة .. والقتلى أكثر من ستمائة ، أكثرهم من الترك والامداد التي عنـــده من الدولة) .. ورجع غالب إلى مكة منكسراً ، وعاد عبد الوهاب إلى وطنه منتصراً .

تلك هي رواية ابن بشر للمعارك التي جرت بين الشريف غالب وبين رجال سعود سنة ١٢١٩ ، وفي اعتقادنا انها رواية ناقصة مضطربة ، ولذلك رجعنا في استقصاء أخبار هذه المعارك إلى الجبرتي وابن دحلان .

والحقيقة هي أن أربع معارك وقعت خلال العام ١٢١٩ هـ . وهي :

١ — معركة جدة .
٢ — معركة الليث .
٣ — معركة السعدية .
٤ — معركة ينبع .

معركة جدة :

يقول ابن دحلان ان عثمان المضايفي وسالم بن شكبان سارا في شهر المحرم إلى جدة بأثني عشر ألفاً ، وحاصراها حصاراً شديداً ، ولكن مدافع جدة أفنت الكثير من جنودهما ، فرحلا عنها بعد ثلاثة أيام. أما الشريف غالب فلم يسر إلى لقائها ، لأنه كان مطمئناً إلى قوة جدة ، ولكنه كان يخاف على مكة ، (فنادى مناديه في البلد الحرام بالنفير العام، وأمر الناس بحمل السلاح والخروج إلى الزاهر فخرج الناس على طبقاتهم .. حاملين السلاح ، يبيتون من وقت المساء إلى الصباح حتى مضى لهم سبع ليال على هذا المنوال) .. ثم عادوا إلى دورهم وأعمالهم بعد أن بلغتهم أخبار جدة السارة ..

غزوة الليث :

وجه الشريف حملتين إلى (الليث) ، إحداهما من البر والاخرى من البحر ، فدخلتا البلد .. وبعد مضي أربعة أيام جاء أربعة آلاف من الوهابيين ، فوقعت بين الفريقين معركة كبيرة سقط فيها قتلى من الجانبين وانسحب الوهابيون .

وقـد جمع الأتراك الذين اشتركوا في المعركة رؤوس بعض القتلى الوهابيين (وحشوها بالتبن وأرسلوها إلى الشريف غالب ، فأمر بتعليقها خارج البلد ، وهرع الناس ينظرون اليها) ..

وهذا العمل الذي سر قلب ابن دحلان تمثيل شنيع نهى عنـه الإسلام نهياً شديداً ويعد خزياً وعاراً لفاعله .

معركة السعدية :

في ١٠ شوال سنة ١٢١٩ بلغ الشريف غالب نزول جنود وهابيين على السعدية

بأعداد عظيمة ، فسار اليهم وجرى بين الفريقين قتـال شديد ، أسفر عن ألفي قتيل من الجانبين ، في رواية ابن دحلان ، وأما ابن بشر فيقول ان الحملة أسفرت عن هزيمة شنعاء لغالب والترك وسقوط ستمائة قتيل منهم .

معركة ينبع :

وفي شهر صفر من ذلك العام، سار شيخ حرب وشيخ جهينة « ابن جبارة » الى ينبـع واستوليا عليها .

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . : (وصلت الأخبار في هـــذه الأيام أن الوهابيين ملكوا « الينبـع »)، وكان للشريف غالب وكيل في ينبـع ، يسمونه الوزير ، اتهمه بعضهم بالخيانة وتسليم البندر .. فلمـا جاء الى مكة أمر الشريف بصلبه فصُلِب ..

ثم أراد الشريف أن يستأجر مركبين للانـكليز كانا فيجدة ويشحنهما بالمقاتلين الى ينبـع ، ولكن أصحاب المركبين لم يقبلا .. فجهز عشر دوات كبار وشحنها بالجنود والمدافع ، ولما وصلت الى ساحل البـلد رمتها بالمدافع فقتلت كثيراً من رجال حرب فاضطروا الى إخلاء ينبـع .

سنة ١٢٢٠ هـ .

بيعة المدينة المنورة :

في أول سنة ١٢٢٠ هـ . كتب قضاة المدينـــة وعلماؤها وأعيانها كتاباً الى الإمام سعود يبايعونه فيه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وقـد أرسلوه الى الدرعية مع وفد يمثلهم .

لم يستشر الأهالي الشريف غالب ولا ولاة الترك قبل إقدامهم على هذه البيعة الخطيرة ، ولكنهم استشاروا أنفسهم وصالح بلدتهم، فقد عاشت المدينة سنوات طويلة تحت رحمة رؤساء حرب، الذين ضيّقوا عليها الخناق ، إذ (نزلوا عواليها.. وأمرهم عبد العزيز ببنـاء قصر فيها فبنوه وأحكموه واستوطنوه ، وتبعهم أهل « قباء » ومن حولهم ، وضيّقوا على أهل المدينة وقطعوا عنهم السوابل)[1] .

---

(١) ابن بشر .

لم يكن الشريف غالب قادراً على إغاثة أهل المدينة ، وهو المهدد في عقر داره بمكة ، وكذلك سلاطين آل عثمان كانوا هم أيضاً في عناء وبلاء من أعدائهم الاوربيين ومن الثائرين عليهم في الأقاليم .. وهكذا كان استسلام المدينة أمراً حتماً .

سعود في المدينة :

استسلمت المدينة وأطاعت قبل مكة ، ولكن سعود لم يأتِ الى المدينة إلا بعد دخوله مكة ومصالحته للشريف غالب .

جاء سعود الى المدينة في آخر ذي الحجة عام ١٢٢١ هـ . (فدخلها وضبطها أتم ضبط ، وجعل في ثغورها مرابطة ، وأجلى عنها باشا الحرم عنبر والقاضي وكل من يحاذر منه ، واستعمل على المرابطة أميراً حمد بن سالم ، من أهل العيينة ، وجعل على الخراج محمد العييني ، من أهل الدرعية .) [١] .

كنوز الحجرة الشريفة :

كان دخول سعود الى المدينة دخولاً جميلاً ، ولكن سعود ارتكب بعد ذلك خطأً سياسياً استغله خصومه استغلالاً شنيعاً ، وهو استيلاؤه على أموال الحجرة الشريفة ، فقد اشترى قسماً منها لنفسه وباع قسماً ووزع قسماً على عدد من الأعيان .

إن تصرف سعود غير مستنكر في الدين، لأسباب كثيرة سنذكرها ، ولكنه كان عملاً غير موفق من الناحية السياسية و « الدعائية » ، و « التوقيت » – إن صحّ هذا التعبير – !

ومهما يكن الأمر ، فقد بالغ خصوم سعود كثيراً في التنديد بعمله وأرادوا أن يجعلوه خرقاً لركن من أركان الإسلام وإهانة للنبي ﷺ ... وكل ذلك افتراء وبهتان .

---

(١) ابن بشر .

إن خطأ سعود هو في أسلوب سلوكه ، كان ينبغي له أن يمهد لعمله بشرح مقاصده للرأي العام ، ثم كان عليه أن يبعد نفسه عن الشبهات بتسليم الكنوز الى رجال أُمناء يتولون بيعها وصرف أثمانها في المصالح العامة ، وبذلك يدرك كل إنسان خلوص نيّته ، وافقه على عمله أم خالفه فيه .

ردّ الشيخ عبد اللطيف :

ردّ العالم الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ردّاً قوياً على من استنكر عمل سعود في الاستيلاء على كنوز الحجرة الشريفة وبيعها ، فقال :

(.. وأما التجاسر على حجرة رسول الله – يشير الى المال الذي استخرجه سعود من الحجرة الشريفة وصرفه في أهل المدينة ومصالح الحرم – فإنه ، رحمه الله ، **لم يفعل هذا الا بعد أن أفتاه أهل المدينة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فاتفقت فتواهم على أنه يتعين ويجب على ولي الأمر اخراج المال الذي في الحجرة وصرفه في حاجة أهل المدينة وجيران الحرم**، لأن المعلوم السلطاني قد منع في تلك السنة واشتدت الحاجة والضرورة إلى استخراج هذا المال وإنفاقه ، ولا حاجة لرسول الله الى إبقائه في حجرته وكنزه لديه ، وقد حرم كنز الذهب والفضة وأمر بالإنفاق في سبيل الله ، لا سيما اذا كان المكنوز مستحقاً لفقراء المسلمين وذوي الحاجة منهم كالذي بأيدي الملوك والسلاطين ، فلا شك ان استخراجها على هذا الوجه وصرفها في مصارفها الشرعية أحب الى الله ورسوله من إبقائها واكتنازها ، وأي فائدة في إبقائها عند رسول الله ﷺ وأهل المدينة في أشد الحاجة والضرورة اليها ، وتعظيم الرسول وتوقيره إنما هو في اتباع أمره والتزام دينه وهديه ، فإن كان عند من أنكر علينا دليل شرعي يقتضي تحريم صرفها في مصالح المسلمين فليذكره لنا .

ولم يضع هذا المال أحد من علماء الدين الذين يرجع اليهم ، وليس عند هؤلاء إلا اتباع عادة أسلافهم ومشايخهم .) .

دفاع الجبرتي :

دافع الجبرتي عن حق ولي الأمر في التصرف بالمدخرات والكنوز واستعمالها

في مصالح المسلمين دفاعاً حسناً مؤيداً بكثير من الأحاديث ، ولكنه أغفل الناحية السياسية ، وشأنه في ذلك شأن الشيخ عبد اللطيف ، على قوة حججها ، قال :

(.. يذكرون ان الوهابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها ، فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام ، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها سخاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم ، او لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء ، فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنون والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم في الأذهان حرمة تناولها وانها صارت مالاً للنبي ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها ، والنبي ﷺ منزّه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبياً عبداً ، ولم يخترْ أن يكون نبياً ملكاً .

وثبت في الصحيحين وغيرهما انه قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .

وروى الترمذي بسنده عن أبي امامة ، عن النبي ﷺ ، قال : عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا ، يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ـ أو قال ثلاثاً أو نحو ذلك ـ فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك .

ثم إن كانوا وضعوا هذه الذخائر والجواهر صدقة على الرسول ومحبة فيه ، فهو فاسد ، لقول النبي ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد » ، إنما هي أوساخ الناس ، ومنع بني هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم ، والمراد الانتفاع في حال الحياة لا بعدها ، فإن المال أوجده الله سبحانه من أمور الدنيا لا من أمور الآخرة ، قال تعالى: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) ، وهو من جملة السبعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزيز في قوله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ، فهذه السبعة بها تكون الخبائث والقبائح وليست هي في نفسها أموراً مذمومة بل قد تكون معينة على الآخرة إذا صرفت في محلها .

وعن مطرف، عن أبيه ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ « الهاكم التكاثر » قال : يقول ابن آدم مالي مالي،فهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟

إلى غير ذلك ..

ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته ، لا بمخالفة أوامره ، وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقي الأصناف الثانية .

وان قال المدخر : اكنزها لنوائب الزمان ، ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة اليها .

قلنا : قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج، وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم ، فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم ، واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والطلبات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هـذه المدخرات شيئاً ، بل ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات فيرسلونه هـدية إلى الحجرة .. ولا ينتفعون به في مهماتهم فضلاً عن إعطائه لمستحقيه من المحتاجين ، وإذا صار في ذلك المكان لا ينتفع به أحد إلا ما يختلسه العبيد ... الذين يقال لهم « أغوات الحرم » .

.. والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعاً ، وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها .

إلى أن حضر الوهابي واستولى على المدينة ، وأخذ تلك الذخائر .. فيقال انه عبى أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالالماس والياقوت العظيمة القدر ، ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة من الماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام ، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك وسلاحها من الحديد الموصوف، كل سيف منها لا قيمة له وعليه دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين، وغير ذلك) .

رواية بركهارت :

ويقول بركهارت ان زعماء المدينة كانوا قد استولوا على كثير من كنوز الضريح النبوي ، قبل دخول سعود الى المدينة ، وأكثر ما أخذوه من الأواني الذهبية ، وكانوا يزعمون انهم يبيعونها ليوزعوا أثمانها على الفقراء ولكنهم ، في الحقيقة ، كانوا يتقاسمونها فيما بينهم .

قال : (ولما دخل سعود الحجرة أخذ كل شيء ثمين . وقــد باع قسماً من الكنوز الى الشريف غالب ، وقدر الشريف ما أخذه بمائة ألف ريال .

أما بقيــة الأشياء ، وخصوصاً الجوهرات النفيسة ، فقد حملها سعود معه الى الدرعية ، وكان أغلى ما أخذه نجمة من الجوهر يقال لها : «الكوكب الدرّي»، كانت معلّقة فوق الضريح .

كان في الحجرة عقود وأساور وأنواع كثيرة من الحلي مرصّعة بالأحجــار الكريمة ، وكثير من الأواني والتحف الثمينة ، ولكن القول بأنها ثمينة جداً .. الى حد يصعب معه على الانسان حصرها وتقدير قيمتها .. كلام مبالغ فيه .

ولم يكن في الحجرة نقود ، لأن النقود كانت تذهب مبــاشرة الى جيوب حرّاس الضريح ..

ولكنني لا اصدق ان شيئاً من هذه الكنوز التي تتراكم وتتكاثر وتأتي من كل البلاد لم يتسرب الى الزعماء وحراس الضريح ، شأنها في ذلك شأن مصابيح الحرم

المكي الذهبية .. التي أخبرنا المؤرخ قطب الدين انهـــا كانت تخرج من المسجد الحرام مخبأة في أكمام المشايخ العريضة) .

ما أخذه سعود باعتراف القلعي :

وجدنا في استانبول صك التحقيق الذي أجرته لجنة قضائية مع حسن القلعي، الذي أمسك به محمد علي وأرسله الى السلطان ، فإذا فيه ان ما أخذه سعود من نفائس الحجرة هو :

سيف مزين بالماس

تاج مرصع بالماس والعقيق

قلادة نسوية مزينة بالياقوت والماس

حمالات سيوف مرصعة بالماس والياقوت

مسبحة من حبات العقيق بحجم البندقة

زنار مزين بالزمرد

مائة حبة من الياقوت بحجم اللوزة

مائة حبة من العقيق بحجم حبة الحمص

حبات من المرجان بحجم حبة البندق ، عددها غير معلوم

١٤ حلقة مزينة بالعقيق

شمعدان ذهب

حبة زمرد بحجم البيضة

كؤوس مزينة بالعقيق

خنجر مرصع بالجوهر

حبة زمرد بحجم جوزة الهند .

ويقول القلعي ان سعود وزع على عدد من أهل المدينـــة الكثير من الحلي والأواني الذهبية .

السلطان العثماني أذن بأخذ أموال الحجرة :

كان الأتراك – وفي مقدمتهم السلطان العثماني - أكثر الناس استنكاراً لأخذ

سعود أموال الحجرة الشريفة ، ولكننا وجدنا في كتاب المؤرخ التركي جودت باشا وثيقة طريفة تثبت ان السلطان العثماني كان أذن بأخذ أموال الحجرة وتوزيعها على أبناء الشرفاء وطلاب العلم .. وهذه الوثيقة هي رسالة بعث بها سلطان مراكش إلى السلطان العثماني ينكر فيها عليه فعلته أو تصميمه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

(.. وقد ذكرتم فيه من المصاحف المرصعة باليواقيت واللآلي التي أرسلت وأهديت في زمانكم العالي وفي أوقات آبائكم وأجدادكم الغوالي إلى الروضة المطهرة والتربة المقدسة المنورة .. منافعها الآن مفقودة لعدم قراءتها وهي المقصودة ، وبعض الجواهر عليها من الرصايع ، يحتمل أن يكون الساقط منها والضايع ، فلهذا كنتم في موضع الرجا أن ينزع الجواهر والحلي عنها ويباع ، ويعطى أثمانها للشرفاء الذين هم الأطهار والنجباء بالاجماع ، والمصاحف المنتزعة من الجواهر المرصعة لسكان طيبة الطيبة وطلابها لأجل الانتفاع ...

وما رأينا إخراج المصاحف المطهرة من خزينة المدينة المنورة وانتزاع الجواهر والحلي عنها وابتياعها خليقاً بخليقتكم الكريمة وحقيقاً بحقيقتكم الفخيمة ، ولا لشأن آبائكم الكرام جديراً .. لأنها تبرك وهدية لسلطان الأنبياء خير البرية ، عليه وعلى آله الصلوات السنية ، ولا شك أنه حي في قبره .. واخراج الهدية وأخذها عن الخزانة النبوية ، وإن لم يكن في نفسه سيئة ردية ، ما كان دأباً للملوك والأمراء .. خوفاً من القصور في الأدب والاحترام) .. الخ .

سنة ١٢٢٠ وسنة ١٢٢١ هـ .

الشريف غالب يصالح سعود ويبايعه

التضييق على مكة :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . : (إن سعود أمر ببناء قلعة في وادي فاطمة ، قرب مكة ، فتمّ بناؤها وجعل فيها عسكراً ليضيقوا على الشريف

صاحب مكة) . ثم يقول ، في أخبار سنة ١٢٢٠ ، ان سعود أمر عبد الوهاب ورعاياه من تهامة ، وسالم شكبان ورعاياه من بيشة ونواحيها ، وعثمان المضايفي وأهل الطائف وما حولها ، بالنزول الى مكة (والتضييق على أهلهـــا ، ومنع الحاج الشامي من الوصول اليها إن كان محارباً .. فاشتد الأمر على غالب وبلغ منه الجهد،وطلب منهم المصالحة على مواجهة سعود ومبايعته على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، فصالحوه وأمهلوه ..

ودخل عثمان وعبــد الوهاب ومن معهم ، وحجُّوا واعتمروا .. وأعرضوا عن الحج الشامي وحج ..

وانصرف عبد الوهاب ومن معه الى أوطانهم ..

وأرسل غالب الى سعود يطلب إتمام الصلح والمبايعة ، فأجابه اليها .

وأمنت السبل ، ورخصت الأسعار .)

رواية الجبرتي :

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢٢١ :

(وصلت الأخبـــار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية ، حتى وصل ثمن الاردب المصري من الأرز خمسمائة ريال والاردب البر ثلاثمائة وعشرة ، وقِس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك ..)

ويذكر الجبرتي ان الأحوال تغيرت بعد الصلح ، فأمنت السبل (وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف ، وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات ومـــا يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأسمان والأعسال ، حتى بيع الاردب من الحنطة بأربعة ريالات .)

رواية ابن دحلان :

ويقول ابن دحلان ان الإمام سعود عقد (مجمعاً عاماً ، وطلب جميع الأمراء فحضروا عنده ، منهم عبد الوهاب أبو نقطة أمير عسير ، وسالم بن شكبان أمير بيشة ، وعثمان المضايفي أمير الطائف ومـــا حوله ، وغير هؤلاء من الأمراء ،

وأمرهم أن يحاصروا «أم القرى» من جميع الجهات وأن يمنعوا عنها جميع الوارد ويبالغوا في منع الأقوات ، وانصرفوا من الحج على ذلك .)

وفي ١٠ شوال ، كما يقول هذا المؤلف أيضاً ، استولى ثلاثون ألفاً من الوهابيين على « الحسينية » ، وفي ٢٦ من ذي القعدة وصل من الحسينية الى مكة أحد كبار العلماء الوهابيين واسمه الشيخ عبد الرحمن بن نامي ، ومعه ثلاثة منهم ، فاجتمع بالشريف غالب وحدثه في الصلح ورجع في نفس اليوم الى الحسينية يخبر بما وقع بينهما من الاتفاق ، ثم رجع من الحسينية واجتمع بالشريف غالب وتمّم معه الصلح على الشروط الآتية :

١ – يأذن الشريف غالب للوهابيين في الحج ثم يتوجهون الى بلادهم .

٢ – يدخل أهل مكة وكل من كان تحت حكم الشريف في الطاعة .

٣ – يكون أمر مكة وأحكامها تحت نظر الشريف .

وقد اشترط الشريف عليهم أن يعيدوا اليه الحسينية وأثمان ما أخذوه وأتلفوه فيها وحتى دية القتلى .

وأذن الشريف لجموع الوهابيين بدخول مكة فوراً ..

ولما شاع نبأ الصلح اطمأنت القلوب ورخصت الأسعار ..

وصول كتاب الصلح :

(وفي غاية صفر ، وصل من الدرعية عشرون رجلاً ، وفيهم حمد بن ناصر ، أحد علمائهم ، وكان الشريف بجدة ، فنزلوا لملاقاته ، فاجتمعوا به وأعطوه ما كان معهم من المكاتيب من سعود ، وفيها اتمام الصلح) .

مكة تجاري الدرعية :

يقول الجبرتي ان شريف مكة – وكانوا يلقبونه بـ (سيد الجميع) – تعهد بترك ما كان يجري باسمه في مكة من المظالم والفساد ، وأخذ المكوس ومصادرة الأموال (وكانوا خرجوا عن الحدود في ذلك ، حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة فرنسة وعشرة بحسب حاله ، وإن لم يدفع أهله القدر الذي يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الأذن ، وغير

ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوهـا في المبيعات والمشتروات على البائع والمشتري ، ومصادرة الناس في أموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالساً بداره فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها ويقولون : إن سيد الجميع محتاج اليها .

فاما أن يخرجه منها جملة وتصير من أملاك الشريف ، واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر) [1] ..

وقد أمر الشريف (بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنباك ، وترك لبس الحرير والمقصبات).و (أمر الناس أن يدخلوا المسجد حين يسمعون الآذان لأداء صلاة الجماعة ، ونهى عن تكرير الجماعة في المسجد الحرام وأن لا يصلي إلا إمام واحد ، وأن يقتصروا على الآذان على المنابر ويتركوا التسليم والتذكير والترخيم) .. وعاهد الشريف كذلك على (اتباع ما أمر الله تعالى بـه في كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ومـا كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون إلى آخر القرن الثالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين والأحياء والأموات في الشدائد والمهمات .. وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة) [2] ..

دهاء الشريف غالب :

ويقول الجبرتي ان الشريف غالب ، مع كل هذه العهود .. (استمر على أخذ العشور من التجار ، وإذا نوقش في ذلك يقول : هؤلاء مشركون .. وأنا آخذ من المشركين ، لا من الموحدين) .

منع الحاج الشامي والتركي :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٠ هـ . ان الشريف غالب استبقى عنده

---

(١) الجبرتي .

(٢) ابن دحلان .

عسكراً من المغاربة والترك ، بعــد انصراف الحجاج الى بلدانهم ، وانه حصّن جدة وأحاطها بخنادق ومنع أهل نجد وغيرهم من دخولهـا ، ولما سئل عن سبب احتفاظه بالعسكر ، أجاب ان عبد الله باشا العظم ، أمير الحاج الشامي ، هو الذي أمر بذلك ورتبه .. وقــد بلغ ذلك الإمام سعود فاحتاط للأمر ، لشكه في إخلاص الشريف غالب وسلامة نيتـه ، وأرسل الى أمرائه في عسير وبيشة والطائف وغيرهم من الأمراء الذين كان أرسلهم من نجد ليرابطوا حول المدينـــة المنورة ، يأمرهم بأن يمنعوا (الحجاج الذين يأتون من جهة الشام واستانبول ونواحيها ، فلما أقبل على المدينة الحاج الشامي ومن تبعه ، وأميره عبد الله العظم باشا الشام ، فأرسل اليه هؤلاء الأمراء أن لا يقدم اليهم وأن يرجع الى أوطانه .. فرجع ..) [١]

سياسة ذات وجهين :

ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب وأهل مكة جاروا ما كان عليه أهل الدرعية في سلوكهم الديني والاجتماعي ، حتى خيّل لعلماء الوهابية ان أهل مكة يعتقدون حقاً صواب ما يفعلونه ، فذهبوا الى الدرعية وأخبروا الإمام والرؤساء بطاعة أهل مكة .

قال ابن دحلان : (.. إن الشريف غــالب ، في جميع السنين التي كان فيها تغلب الوهابي على مكة ، كان يصانعهم ويهاديهم بالأموال الجزيلة ، بحيث كانت هداياه تصل الى أكثر أمرائهم وعلمائهم وأعوانهم ، يفعل ذلك مدافعة عن نفسه وحماية لبقاء ملكه ، ووقاية لأهل مكة أن ينالهم مكروه .

ومع ذلك : كان يكاتب الدولة العليـــة سراً ، ويحثهم على تعجيل تجهيز عساكرهم ، لإنقاذ الحرمين من الوهابية ..)

---

(١) ابن بشر .

سنة ١٢٢١ هـ .

سعود في مكة :

خرج سعود من الدعية سنة ١٢٢١ هـ . إلى مكة ، حاجاً أولاً ، ومتسلماً لها من الشريف غالب ، ثانياً ، بعد أن أصبح الشريف ، على خطورة امارته ، تابعاً لسلطان سعود .

دخل سعود مكة حاجاً بمن خرج معه من الدرعية ، وانضمت اليه تلك الجيوش الكبيرة التي كانت متجمعة حول المدينة المنورة ، فكانت هذه الحجة حدثاً مذكوراً في تاريخ مكة لكثرة الرجال المسلحين الذين شهدوها .

وقد وصف (علي بك العباسي) ، الذي حج إلى مكة ، في نفس العام الذي دخل فيه سعود مكة ، حجة سعود ورجاله ، فقال :

(رأيت .. جيشاً مؤلفاً من خمسة وأربعين ألف وهابي يسير ، أكثر أفراده يركبون الجمال ، يرافقهم ألف جمل تحمل الماء والخيام والحطب للوقود والأعشاب الجافة .

وكانت فصيلة من مائتي خيال ترفع بيارق من ألوان مختلفة على رؤوس الرماح ، وقد قيل ان فصيلة الخيالة هذه تخص القائد أبو نقطة ، وقد لحظت سبعة أو ثمانية بيارق من راكبي الجمال بدون طبول ولا أبواق ولا أية أداة عسكرية أخرى ، وبما أن هؤلاء الرجال جميعهم كانوا في ثياب الاحرام وكذلك قادتهم تعذر عليّ تبين سعود وأبي نقطة ، إلا ان شيخاً جليلاً ذا لحية بيضاء طويلة يتقدمه العلم الملكي بدا لي انه السلطان ، وكان هذا العلم الملكي أخضر ويحمل شهادة (لا إله إلا الله) منقوشة عليه بأحرف بيضاء ضخمة .

ولم يلبث الجبل حتى اكتسى وما حوله من الأرض بجموع الوهابيين ، وكان مشهدهم يملأ النفس ذعراً ، ولكن متى تغلب الإنسان على هذا الانطباع الأول وجد لديهم خصالاً حميدة ، فهم لا يسرقون قط لا عن طريق القوة ولا عن طريق الحيلة .. وهم يؤدون أثمان كل ما يشترونه وأجور الخدمات التي تقدم اليهم ..

يطيعون زعماءهم طاعة عمياء ، ويتحملون صامتين كل أنواع المشاق) [١] .

---

(١) كتاب « اكتشاف جزيرة العرب » .

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر : ان سعود ورجاله حجوا على أحسن حال (وبذل سعود في مكة شيئاً كثيراً من العطايا والصدقات ، ونزل قصر البياضة الشمالي ، فركب اليه الشريف غالب وبايعه .

وأخرج سعود من كان في مكة من الأتراك ،وأخرج من كان في قصور مكة من عسكر الترك .

وكسا الكعبة الشريفة كسوة فاخرة من القز الأحمر ، ثم كساها بعد ذلك بالقيلان الفاخر ..

ثم رحل منها في آخر ذي الحجة ، وقصد المدينة النبوية) .

رواية الجبرتي :

ويقول الجبرتي : (وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وان سعود الوهابي وصل إلى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار .

وانه أحضر مصطفى جاويش ، أمير الركب المصري ، وقال له :

– ما هذه «العويدات» .. والطبول التي معكم ؟ – يعني بالعويدات المحمل –.

فأجابه أمير الركب المصري :

– هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس ، بحسب عادتهم .

فقال له :

– لا تأتِ بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيتَ به أحرقتُه ..

.. وانه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة ، وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق .. وكذلك البدع .)

حجات سعود وبعض عاداته في ضبط البلدان :

ويقول ابن بشر ان سعود كان يحج كل عام ، لم ينقطع عن ذلك قط .

وكان في كل سنة يبدل المرابطة الذين في المدينة (وهذه عادته في الثغور ، يجعلهم فيها سنة ، ثم يبدلهم بغيرهم ويرجعون الى أهاليهم .)

وكان الشريف غالب لسعود (بمنزلة أحد نوابه او أمرائه الذين في نجــد ، بالسمع والطاعة .)

وقد حج ابن بشر سنة ١٢٢٥ ، فرأى الإمــام سعود في مكة ، ووصفه عن مشاهدة لا سماع ، قال :

(حججت تلك السنة وشهدت سعوداً وهو راكب مطية مُحرِماً بالحج — ونحن مجتمعون في « نمرة » لصلاة الظهر — وخطب فوق ظهر مطيته خطبة بليغــة ، ووعظ الناس وعلـّمهم المناسك .

وذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله ، وما أعطى الله في ضمنها من الاجتماع بعد التفرق ، وأمان السبل ، وكثرة الأموال ، وانقياد عصاة الرجال ، وان أضعف ضعيف يأخذ حقه كاملاً من أكبر كبير من مشايخ البدو وأعظم عظيم من رؤساء البلدان .

ونادى ، وهو على ظهرها ، لا يحمل في مكة سلاح ولا تبرج امرأة بزينــة ، وتوعـّد من فعل ذلك من جميع رعيـّته .

ورأيت الشريف غالباً أقبل فوق حصانه ، ونحن جلوس في الصف ، وليس معه إلا رجل واحد ، ونزل سعود من كور مطيته وسلم عليه ، وتعانقا ، وسلم عليه المسلمون ، ودخل سعود بعد ذلك مكة ، وسار فيها سيرة حسنة ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدقات ، والعطاء ، والرأفة بأهلها ، وجعل في الأسواق رجالاً وقت الصلاة يحضـّونهم عليها ، فلا تجــــد فيها وقت الصلاة متخلفاً ، إلا نادراً . ولا تجـد في الأسواق .. من يشرب التنباك ولا غيره من المحظورات ..

.. وفي تلك الحجة كشف سعود القبة التي فوق صخرة مقام إبراهيم ، فبرزت الصخرة والقدمان الشريفتان ورأى ذلك الناس ..)

شهادة أمير الحج المغربي :

في سنة ١٢٢٦ حجَّ الأمير المغربي ابراهيم نجل سلطان المغرب سليمان، في عدد كبير من المغاربة ، ولما عادوا سُئلوا عن سعود ، فقالوا :

« انهم ما رأوا من ذلك السلطان – يعني سعوداً – ما يخالف ما عرفوه من الشريعة ، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه ما به الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المنكر الحرام ، وتنقية الحرمين الشريفين من الآثام التي كانت تفعل بها جهاراً من غير نكير .

وذكروا ان حاله كحال أحد النـــاس لا يتميز عن غيره بزيّ ولا مركب ولا لباس .)

وقد اجتمع الأمير المغربي ، وكان معه القاضي أبو اسحاق ، بالإمام سعود ، فقال سعود : إن الناس يزعمون اننا نخالفون للسنة المحمدية ، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة ، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا ؟

فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم التجسيم المستوى.

فقال لهم : معاذ الله ! إنما نقول كما قال مالك : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ! فهل في هذا مخالفة ؟

قالوا : لا ، وبمثل هذا نقول نحن أيضاً !

ثم قال له القاضي : وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ . وحياة اخوانه من الأنبياء ص . في قبورهم !

فلما سمع سعود ذكر النبي ﷺ ارتعد ، ورفع صوته بالصلاة عليه ، وقال : معاذ الله ! إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره ، و كذا غيره من الأنبياء ، حياة فوق حياة الشهداء !

ثم قال له القاضي : وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وسائر الأموات ، مع ثبوتها في الصحاح !

فقال : معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا ، وهل منعناكم أنتم لمـا عرفنا انكم تعرفون كيفيتها وآدابها ؟ وإنما نمنع منها العامة ، الذين يشركون العبودية بالألوهية ، ويطلبون من الأموات أن يقضوا لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية)[١] .

---

(١) أنظر كتاب الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، تأليف الشيخ أحمد الناصر السـلاوي .